ورقة بحث بعنوان:

إشكالية العلاقة بين الثقافة والتغيير في الحراك الشبابي

مؤتمر التنوع الثقافي، لبنان _ طرابلس 21- 23/ 5/2015

الاتحاد العالمي للمؤسسات العلمية برعاية فخرية مع جامعة القدس المفتوحة

أ.د. يوسف ذياب عواد

مدير فرع نابلس / جامعة القدس المفتوحة

استاذ الصحة النفسية

yawwad@qou.edu

yawwad2012@hotmail.com

الملخص

مقدمة:

لعل ما يشهده العالم العربي اليوم من ظاهرة تدعى بالربيع العربي، وما يحتويه باطن الأمر من تداعيات وانحرافات، بل انزلاق نحو مجهول محفوف بالمخاطر، لدرجة أصبح يهدد النسيج الاجتماعي، وعوامل الاستقرار الأمني والاقتصادي للبلدان العربية. إذ إن الشباب في هذه الحراكات السياسية، غالباً ما يفتقدون إلى الخبرة الكافية لتحديد مسارات التدخل، وسبل تحقيقها وفق رؤية محددة، وبالتالي غالباً ما تتجه عملية التغيير نحو السلب، وليس نحو بوصلة المصلحة العامة، لأن مسببات هذه الحركات غالباً ما تكون بمثابة تنفيس انفعالي لمكبوتات متعددة لازمت العقل الشبابي منذ طفولته.

ومن هنا يقع على قطاعات المجتمع المختلفة ومنها الجامعات بأن يدركوا أن الشباب وجدوا ضمن واقع لم يشاركوا في صنعه، كما أنهم أساس التغيير وقوة الدفع باتجاه التنمية، وفي الوقت نفسه لا بد لهؤلاء الشباب وفي طليعتهم الجامعيون، أن يعرفوا أن مستقبل البلاد ومصيرها لا يتعلق بهم وحدهم، بل يتوجب عليهم أن يسهموا في تطوير آليات تعامل جمعية توظف حكمة الشيوخ بعزيمة الشباب، ضمن إطار مسؤول قابل للمساءلة، ويوازن بين البعد الوطني والبعد المجتمعي، ولعل في تأطير المسؤولية المجتمعية في نفوس هؤلاء الشباب ما يبعث على تحقيق ذلك.

الشباب والتغيير

يمثل الشباب جزءاً كبيراً من تشكيل مجتمعاتهم، إذ تتراوح نسبتهم بين (19- 20%) من مجموع السكان في فلسطين، ومن المتوقع زيادة هذه النسبة في السنوات الخمس القادمة لتصل إلى (22 %) ضرورة إعطاء نسب من دول عربية أخرى، لأن الحديث هنا عن الشباب العرب بشكل عام وليس عن فلسطين فقط.

وتعد مرحلة الشباب مرحلة مهمة من مراحل العمر التي تمر بالإنسان، وتتميز بالحيوية؛ على اعتبار أنها طاقة متجددة تضفي على المجتمع طابعاً مميزاً، وترتبط بتحمل المسؤولية، كما يعد الشباب طاقة قومية بما لديهم من أفكار وقدرات وإبداعات.

ترتبط كثيرٌ من المشكلات الاجتماعية والنفسية ارتباطاً كبيراً بالشباب لأسباب فسيولوجية تتعلق بالتغيرات الجسمية من جهة، ولما يمتلكونه من رغبات وحاجات نفسية واجتماعية شديدة تحتاج في معظمها إلى إشباع عاجل.

إن الحديث عن التنمية الشاملة في إطار لا يقحم الشباب بصفتهم الإنتاجية ومساحتهم العريضة في المجتمع، يعد قضية منقوصة إن لم تكن مبتورة، فالشباب هم معول البناء، وهذا يدل على أهمية دمجهم وتأطيرهم في الهم التنموي، وليس اعتبارهم مجرد احتياجات تسعى للحصول على إشباع؛ فالشباب هم الأقدر على تحليل واقعهم وتحديد مشكلاتهم ضمن إحساسهم المرهف بتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، كما أنه باستطاعتهم أن يقدموا لمجتمعهم كل ما في وسعهم لتوفير رفاهيته، وبأن يكونوا صمام أمان ومحور تغيير نحو الغد المشرق.

يعد الحراك الشعبي أداة مهمة في إحداث التغيير نحو الأفضل للمجتمعات، إلا أن طبيعة هذا الحراك، مبرراته وأهدافه، تتحدد بالقيادة التي تدير هذا الحراك على أسس مدنية وحضارية بعيدة عن العشائرية والقبلية.

وقد ظهر في الآونة الخيرة نمطان رئيسيان في التغيير في المنطقة العربية، الأول: ويقوم على نجاح حركات احتجاجية ذات طابع عرقي أو طائفي أو ديني في تحدي الدولة المركزية، أما النمط الثاني: فيقوم على نجاح حركات احتجاجية ذات طبيعة أفقية لا مركزية تجمع بين فئات مجتمعية سياسية مختلفة في إسقاط النخب الحاكمة.

وقد فاجأ جيل الشباب الأنظمة بقدرته على التضحية، كما أنه أسقط أسطورة التنظيمات السياسية التي تقود المتظاهرين على الاحتجاج، بل عكس المعادلة بان لا يستلزم بالضرورة وجود تنظيم محكم ودقيق لينظم الشباب.

ولعل المتتبع لحراكات احتجاجية في بلدان متعددة يجد بشكل ما يشبه الإجماع على وحشية بعضهم وهمجيته، كما أن الشعارات التي رفعت أثناء هذه الاحتجاجات كانت فضفاضة وعامة دون تحديد استراتيجية معينة للتغيير سواء أكانت بعيدة المدى أو متوسطة أو قريبة. ناهيك عن أن قيادات هذه التجمعات لم تبلور تصورا واضحا لطبيعة النظام البديل على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مما يشير إلى صعوبة تحقيق تغيير مناسب من خلال شعارات جوفاء، عدا عن ما تسببه وسائل الإعلام من فقاعات سياسية ونفخ قيادات كرتونية، مما يقلل من التصور الواضح لما ستصل إليه الأمور.

أصبح الحديث عن الشباب وما يزال من مرتكزات التغيير، ومكونات النهضة، وحركات التحرر، ومن هذا المنطلق فإن تناول موضوع الشباب والتغيير مسألة مهمة وإستراتيجية، إذ قد يؤدي عدم الالتفات إلى حاجات الشباب والعمل على تلبيتها إلى حدوث بؤر أزمات وتوترات كبيرة، بل قد يحولهم ذلك إلى طاقة تدمير وهدم لمجتمعاتهم ومقوماتها .

توصف ظاهرة الحراك الشبابي بأنها ظاهرة اجتماعية، برأس مال اجتماعي يهدف إلى اختراق الواقع وإحداث تغيير فيه؛ إذ تتراكم فيها المعرفة وتتوحد فيها القوى، لتحقيق أهداف مشتركة بجهود طوعية.

احتياجات الشباب العربي للتغيير

تعد مرحلة الشباب أهم مرحلة عمرية يعيشها الإنسان، لكونها تحمل خصائص المراحل السابقة عنها وكذلك اللاحقة لها. مما يشكل مجالاً واسعاً، تتصارع فيه الأطر والمؤسسات التربوية والاجتماعية والثقافية والسياسية بمختلف أنواعها وتشكيلاتها وتوجهاتها.

ويمتاز الشباب عن مراحل العمر الأخرى بمزايا أساسية توفر له أهلية خاصة في مشاريع التغيير، ومنها الطاقة والحيوية المتجددة والمتفجرة والتفاعلية مع المتغيرات والأحداث، وعلو الهمة والقدرة على العطاء البدني والعقلي، والطموح المتجدد والكبير، وعدم الاستسلام واليأس، وحب المغامرة ومواجهة التحديات وعدم الخوف، ورفض الذلة والاستسلام للظلم أو التعايش معه، والقدرة على التطوير والتطور، والتخفيف من أعباء الحياة.

لعل ما يشهده العالم العربي اليوم من ظاهرة تدعى بالربيع العربي، وما يحتويه باطن الأمر من تداعيات وانحرافات، بل انزلاق نحو مجهول محفوف بالمخاطر، لدرجة أصبح يهدد النسيج الاجتماعي، وعوامل الاستقرار الأمني والاقتصادي للبلدان العربية. إذ إن الشباب في هذه الحراكات السياسية، غالباً ما يفتقدون إلى الخبرة الكافية لتحديد مسارات التدخل، وسبل تحقيقها وفق رؤية محددة، وبالتالي غالباً ما تتجه عملية التغيير نحو السلب، وليس نحو بوصلة

المصلحة العامة، لأن مسببات هذه الحركات غالباً ما تكون بمثابة تنفيس انفعالي لمكبوتات متعددة لازمت العقل الشبابي منذ طفولته.

ومن هنا يقع على قطاعات المجتمع المختلفة ومنها الجامعات بأن يدركوا أن الشباب وجدوا ضمن واقع لم يشاركوا في صنعه، كما أنهم أساس التغيير وقوة الدفع باتجاه التنمية، وفي الوقت نفسه لا بد لهؤلاء الشباب وفي طليعتهم الجامعيون، أن يعرفوا أن مستقبل البلاد ومصيرها لا يتعلق بهم وحدهم، بل يتوجب عليهم أن يسهموا في تطوير آليات تعامل جمعية توظف حكمة الشيوخ بعزيمة الشباب، ضمن إطار مسؤول قابل للمساءلة، ويوازن بين البعد الوطني والبعد المجتمعي، ولعل في تأطير المسؤولية المجتمعية في نفوس هؤلاء الشباب ما يبعث على تحقيق ذلك.

إن نمو حاجات الشباب ورغباتهم الفسيولوجية والاجتماعية، تصبح أكثر إلحاحاً، ويتطلب إشباعها سقفاً من المطالب يتجاوز في أغلب الأحيان ما توفره المؤسسات القائمة ليتطور الصراع من صراع له مضمون داخلي مليء بالتوترات النفسية، بين رغبات الشباب من جهة والأطر المرجعية التي لا تتيح مجالات أوسع للإشباع من جهة ثانية. وبهذا الوضع، تعكس فيه هذه الظاهرة التحولات الطارئة على المجتمع العربي من حيث شبابيته وفاعليته، إلا أنها تعكس في الوقت نفسه المأزق الذي يواجهه هذا المجتمع.

إن الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة وانتشار الفقر والجهل ؛ شكّلت مجتمعة بيئة مناسبة لانتشار السخط والاحتجاج بين الفئات الشابة المنبوذة والمهمشة، التي تعاني من الإقصاء وقلة الاستفادة من العوائد المادية للسياسات التنموية.

إن الحديث عن التأثير على الشباب المهمش، غير المتعلم أو ذي التعليم المحدود، يعد أمراً ضرورياً، فإذا كنا نستطيع التعامل مع الشباب المثقف بأساليب الحوار والمقاربات السلمية المختلفة، التي غالبا ما تؤتي أكلها، فإن ردود الأفعال واحتجاجات الشباب المهمش، وغير المتعلم لا يمكن لأي مقاربة أن تحتويه وتحد من هيجانه، فمظاهر العنف لدى الشباب غير المتعلم لا أحد يستطيع التنبؤ بحجم نتائجها الكارثية. .

إن معالجة هذه الإشكالية لا يمكن أن يكون إلا بربط جاد وحقيقي بين الجامعات في العالم العربي والعمليات التنموية. غير أنه في ظل الأوضاع المتردية، وفي انتظار أفق جديد تبقى الجامعات العربية مدار صراعات بين قوى المجتمع المختلفة، فالسلطة تريدها أداة تحكم وتكييف وتطويع، والمجتمع يريدها أداة معرفة ومعبر أساس للاندماج في سوق العمل، وقوى التقدم تريدها أداة تنوير وتثوير، والطبقة المثقفة تريدها مجالاً لممارسة حرية التفكير والنقد.

الشباب العربي وثقافة التغيير

يعد الحديث عن دور الشباب في التغيير والإصلاح مسألة متجددة في الخطاب العربي والإسلامي المعاصر والمستند إلى تجربة الدولة العربية الأولى وحتى دعوات الأنبياء من قبل، وهو الذي حظي باهتمام ورعاية النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

ويتمثل دور الشباب في مشروع التغيير العربي المعاصر في اتجاهات ثلاثة؛ الأول، ويشمل: البناء والقيادة والتخطيط والإدارة والتطوير الداخلي للمشروع ليبقى معاصراً وقادراً على الفعل، ومتجدد الأفكار والابتكار في الوسائل والأساليب، والثاني يضمن: التفاعل مع المحيط والتأثر والتأثير به، فيما يعرف بالحداثة والتجدد الحضاري، الذي يمنع الجمود أو التخلف عن ركب التكنولوجيا، والثالث يراعي: استمرار إنهاض المشروع من أي كبوة، وتقديم التضحيات في سبيل إنجاحه، وتحمل تبعات المواجهة وقوة الشد العكسي، بما في ذلك التنافس وربما الصراع في المضمار الحضاري.

فعلى الرغم مما تحققه هذه المرحلة لدى الشباب من تطور على مختلف الأصعدة، بحيث يكتسب الشباب خلالها قدرات ومهارات تجعلهم قادرين على التكيف الإرادي والمشاركة وإبداء الآراء والمواقف، إلا أنهم يتعرضون في الوقت ذاته لأشكال مختلفة من المعاناة، والاصطدام المباشر وغير المباشر مع المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسلطوية، قوامها في أغلب الأحيان القمع والقهر والتخويف.

وتعد الجامعات بمثابة المجال المركزي الوحيد في مجتمعاتنا العربية من حيث إنتاج المعارف وتطويرها بصفة هادفة ومنتظمة. والسبب الرئيس في ذلك هو هشاشة مختلف مكونات المجتمع المدني، وهياكل الإنتاج فيه؛ ذلك أن مجتمعاتنا العربية ليست بالمجتمعات التي تشكل فيها مؤسسات الإنتاج أداة مركزية في خلق المعرفة وتطويرها ، لأن هذه المؤسسات تكتفي في غالب الأحيان باستهلاك بعض المعارف الأساسية. كما أن هياكلنا الثقافية لا زالت هشة ومحاصرة ومهددة في كثير من جوانبها؛ حيث ما تزال المسألة التعليمية مرتبطة بإرادة السياسيين والمخططين ووزراء التربية، وبدرجة أقل برجال التعليم والمثقفين.

ويقترن الحديث عن الحراك الشعبي في الوطن العربي بالشباب الذين وجدوا ضمن واقع لا يلبي احتياجاتهم على نحو مناسب– فتمثلت الأزمات والتوترات لتعكس هذه الحاجات التي غالباً لا تحتمل التعطيل أو التأجيل.

ورغم ذلك استطاع الشباب العربي أن يتبنى مواقف شجاعة، أحرج بها الأنظمة العربية كثيراً تجاه حلفائها، كالموقف من القضية الفلسطينية، التي لا يمكن إنكار مدى إسهامها في إذكاء الوعي القومي لدى الشباب العربي المتعلم، إذ كانت في بعض الأحيان تعتبر قضية وطنية أولى لديهم.

إذن يمكن القول إن ثقافة التغيير، ليست بغريبة على الأوساط الشبابية المثقفة في العالم العربي. فهي استمرارية لثقافة الرفض للمعايير والقيم والسلطة وكل الأوامر والتوجيهات التي يصدرها الكبار، لتتطور بعد ذلك إلى مواقف مختلفة ملازمة للظواهر الشبابية. غير أن تبلورها في شكل تمثلات داخل الذاكرة الجماعية لفئات الشباب، يجعلها تتحول إلى اتجاهات إيديولوجية لها خلفيات فكرية واضحة، تتغذى من الظروف التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يعرفها كل مجتمع على حده.

كما تبقى قضية صراع الأجيال سيدة الموقف في الثقافة العربية؛ فيرى كبار السن أن الشباب قليلو خبرة ونضج في قيادة مجتمعاتهم وتحمل مسؤوليات المواطنين فيها، وبالمقابل ينظر الشباب إليهم على أنهم حرس قديم يفتقدون لمبادرات حديثة توظف التكنولوجيا في إدارة قضايا المجتمع وتحقق ازدهاره على نحو فاعل، كما لا توجد مبادرات تجسر الهوة بين الفريقين، فحكمة الشيوخ ضاعت تحت وطأة الشباب وعزيمتهم أو اندفاعهم، فيما أحبطت قدرة الشباب على التغيير بغياب التوجيهات والإرشادات الداعمة أو المحفزة.

ولعل المتتبع للحراكات الشعبية يجد أن الوسائط السياسية والإعلامية والثقافية كالأحزاب ومنظمات المجتمع المدني، كما أن غالبية النخب المثقفة لم تكن لها قوة الاستباق بقدر ما التحقت بالركب المتأخر لحراك التغيير. كما لعبت وسائط الاتصال الجديدة كالانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي كالفيسبوك، والتويتر ....، دوراً مهماً في هذا الحراك؛ بحيث تحول الفضاء الرقمي إلى أداة فعالة للاحتجاج والتغيير.

إن الشباب العربي ما زالوا مستثنيين من قيادة المبادرات الاجتماعية والوطنية، وفي معظم الأحيان يشاركون بصفتهم منفذين لا مخططين ومستشارين، وهذا يولد فجوة كبيرة بين الواقع والمأمول؛ والتغيير ومقاومة التغيير، كما أثر الانقسام الفلسطيني في حماس الشباب وتطلعاتهم وزاد من لامبالاتهم، وكان الانقسام خبرةً منفرةً لهم وخلق تعميماً شبه جمعي بأن العمل السياسي له تبعات باهظة الثمن، في حين أن عدم التدخل والاستقلالية له فوائد، وبالتالي أصبحت ظاهرة اللامبالاة قناع يتوشحه الشباب ويتهربون بموجبه- نوعاً ما – من استحقاقات المواطنة الصالحة، وما يترتب عليها من إسهامات في التغيير .

خلاصة

يتضح مما سبق، أن مفهوم التغيير مفهوم شامل، يهتم أو ينصب اهتمامه على الأوضاع الراهنة، في ظل الوجود الحقيقي، الذي يتأثر بالبعد الثقافي. إلا أن بوصلة التغيير في الحراك الشبابي العربي، ليس لها اتجاه محدد يميزها؛ فقد يتضمن التغيير تقدماً وارتقاء في بعض

الأحيان؛ وقد ينطوي على تخلّف وتراجع في بعضها الآخر، لأن مقومات التغيير في الثقافة العربية الحالية لم تنضج لحدود تحمل المسؤولية المجتمعية لهؤلاء الشباب لقيادة التغيير المنشود، بغض النظر عن المبررات والمسوّغات، وسواء أكانوا متعلمين أم مثقفين، أو غير ذلك، كما تعكس هذه الحالة بنفسها على واقع حال الأحزاب العربية التي تلاشى دورها ومكانتها أمام الفضاء الرقمي تحول دون تحقيق طموحات المواطن العربي ، بدلا من القيام بوظائفها، وتعزيز الديمقراطية، وتنشيط الحياة العامة.